



عندما فرّ نابليون من سجنه كتب صحف باريس: "فرار السفاح". ثم عندما اقترب من فرنسا كتبت: "المجرم يقترب من البلاد". ثم عندما اقترب من باريس كتبت: "الدكتاتور لم يعد بعيداً". وعندما دخل باريس كتبت: "الإمبراطور يدخل باريس" بهذه العبارات - أو الأحجية - نختصر الكثير من المشهد العربي حولنا. فالحركات الدولية تعيث في الأرض فساداً، وعناصر المجتمع تتقلب عليها التصنيفات طوعاً أو قسراً بين مراتب المجتمع، من المجرم السفاح إلى أن يصبح دكتاتوراً أو إمبراطوراً، بحسب مقتضيات المشهد الحزين.

وليس في العالم العربي قوى كثيرة فاعلة على الساحة السياسية خارج المنظومات الوظيفية ومن يدور في فلكها، وكلما استقلت قوة بتوجه حر أو شبه حر تم وأدتها بعد حصارها إعلامياً وتشويه صورتها في الذهن والوعي الجمعي للمجتمع.

كأننا بفرعون يقول: "ذروني أقتل موسى". فرعون لم يكن يمنعه أحد من قتل موسى وقتها، إنما قوله "ذروني"، تفيد رغبته في أن تتحرك آلة الإعلامية لتمهد للجريمة المرتقبة ضد نبي الله وزمرته من المؤمنين، ليقبلها الضمير والعقل الجمعي في المجتمع.

ولعل لسان حال الأنظمة الوظيفية مع إعلامها يقول ذروني أقتل كل من تسول له نفسه الاستقلال برأيه عن الطريق المرسومة له سلفاً.

أما أحجية نابليون فتسخدمها القوى المحركة دولياً (أمريكا وأوروبا) لتتدارك بها ومعها ما يفرض عليها من فلتات خرجت عن سيطرتها.

فطالبان الإرهابية في أول الأمر -بحسب تصنيفها- باتت جزءاً من القوى الوطنية الأفغانية الفاعلة، وجبهة النصرة في سوريا ما لبثت أن فرضت نفسها على الساحة لتحول من "القاعدة" إلى "تنظيم إرهابي"، ثم "قوة من قوى الإسلام المتطرف"

في سوريا، وأخيراً "فصيل من فصائل المعارضة".

واليوم ننظر إلى "داعش"، فنشهد تسابقاً محموماً لتنميته هذه الظاهرة سياسياً ودينياً، مما يستوقف كل ذي عقل ليتساءل بسؤال ملح جاد وصارخ بشأن ماهية هذه الظاهرة المسمة "داعش"، بعيداً عن التواطؤ الدولي وعبارة "ذروني أقتل موسى"، ونستصحب من "أجحية نابليون" معضلة ومحاذير التعامل والحكم من خلال التنميـة السياسي التقليـي، في ظل واقع ومتغير جـديـد يـفـرـضـ نـفـسـهـ ويـتـشـكـلـ خـارـجـ الإـطـارـ التقـلـيـيـ للـوعـيـ السـيـاسـيـ والـاجـتمـاعـيـ الإنسـانـيـ المـعاـصـرـ.

التنميـة التقـلـيـيـ غيرـ مجـدـ فيـ وـصـفـ دـاعـشـ، فـمـنـ غـيرـ المـمـكـنـ أنـ نـصـفـ دـاعـشـ بـالـحـرـكـةـ أوـ التـنـظـيمـ فـقـطـ، فـيـ ظـلـ سـيـطـرـتـهاـ الفـعـلـيـةـ عـسـكـرـيـاـ وـإـدـارـيـاـ عـلـىـ مـسـاحـةـ تـمـتدـ مـنـ الرـقـةـ إـلـىـ الـموـصـلـ، تـفـوقـ مـسـاحـةـ الـمـمـلـكـةـ الـمـتـحـدـةـ، وـبـمـقـدـرـاتـ اـقـتصـادـيـةـ تـفـوقـ مـقـدـرـاتـ عـدـةـ دـوـلـ عـرـبـيـةـ مجـتمـعـةـ.

كـماـ يـصـعـبـ أـنـ نـصـفـهاـ بـالـدـوـلـةـ -ـبـحـسـبـ المـفـهـومـ التـقـلـيـيـ- لـفـقـدـانـهاـ الـاعـتـرـافـ الدـولـيـ مـنـ جـهـةـ، وـوـجـودـهاـ عـلـىـ أـرـاضـ عـابـرـةـ للـحـدـودـ تـعـتـبـرـ فـيـ الـقـانـونـ الدـولـيـ تـابـعـةـ لـدـوـلـ أـخـرـىـ مـسـتـقـرـةـ الـحـدـودـ.

وـهـنـاـ، يـجـبـ أـنـ نـؤـكـدـ أـنـ وـجـودـهاـ وـظـهـورـهاـ فـيـ إـدـارـةـ الـيـوـمـيـةـ لـحـيـةـ الـمـجـتمـعـاتـ الـخـاصـعـةـ لـسـيـطـرـتـهاـ فـيـ شـكـلـ إـدـارـةـ الـدـوـلـةـ مـقـدـرـاتـهـاـ، يـجـعـلـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ تـنـظـيمـ، وـاستـمـرـارـ تـمـسـكـهاـ بـحـرـبـ الـعـصـابـاتـ وـالـاعـتـمـادـ عـلـىـ الـقـوـىـ الـمـتـطـوـعـةـ لـاـ يـصـنـفـهـاـ دـوـلـةـ بـحـسـبـ التـصـنـيـفـ الدـولـيـ الـحـدـيثـ.

لـقـدـ نـجـحـ تـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ (ـداـعشـ)ـ بـدـهـاءـ مـنـقـطـعـ النـظـيرـ فـيـ الجـمـعـ بـيـنـ جـدـلـيـةـ إـلـقاءـ عـلـىـ دـيـنـامـيـكـيـةـ الـحـرـكـةـ الـفـكـرـيـةـ فـيـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـرـيـ، وـحـرـبـ الـعـصـابـاتـ وـالـعـمـلـيـاتـ الـنـوـعـيـةـ وـأـسـلـوبـ الـكـرـ وـالـفـرـ فـيـ الـمـهـجـومـ، حـيـثـ لـاـ سـيـطـرـةـ لـهـاـ وـلـاـ تـمـكـنـ دـائـمـاـ مـنـ جـهـةـ، وـشـكـلـ الـحـرـبـ الـمـنـظـمـةـ فـيـ وـضـعـ الـدـافـعـ عـنـ الـمـدـنـ الـخـاصـعـةـ لـمـنـاطـقـ سـيـطـرـتـهاـ وـالـتـيـ تـدـيرـهـاـ مـنـ خـلـالـ الـاعـتـمـادـ الـيـوـمـيـ عـلـىـ آـلـيـاتـ تـنـظـيمـ كـيـانـ الـدـوـلـةـ التـقـلـيـدـيـةـ. وـبـقـيـ السـؤـالـ: مـنـ هـمـ؟ وـمـاـذاـ بـعـدـ؟

إـنـ المـتـبـعـ لـتـارـيخـ نـشـأـةـ (ـداـعشـ)ـ يـدـرـكـ أـنـهـ كـانـتـ فـصـيـلاـ أـكـثـرـ طـرـفـاـ وـعـنـفـاـ وـأـقـلـ مـرـونـةـ مـنـ فـصـيـلـ الـأـمـ (ـالـقـاعـدـةـ)، وـكـانـ لـهـاـ دـوـرـ سـلـبـيـ فـيـ الـصـرـاعـ الـمـحـمـمـ الدـائـرـ فـيـ الشـامـ، حـيـثـ تـمـ اـخـتـرـاقـهـاـ وـتـوـظـيفـهـاـ لـضـربـ الـقـوـىـ الـإـسـلـامـيـةـ الـفـاعـلـةـ فـيـ مـعرـكـةـ تـحرـيرـ الشـامـ مـنـ الـأـقـلـيـةـ الـعـلـوـيـةـ الـمـسـيـطـرـةـ الـمـدـعـوـمـةـ مـنـ إـيـرانـ رـاعـيـةـ الـقـوـىـ الـشـيـعـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ.

إـلـأـنـ المـرـاقـبـ مـنـ بـعـيدـ يـدـرـكـ أـنـ ثـمـةـ تـحـوـلـاـ نـوـعـيـاـ حـدـثـ لـلـتـنـظـيمـ عـامـ ٢٠١٣ـ عـنـدـمـاـ شـهـدـنـاـ مـصـرـعـ الـعـدـيدـ مـنـ قـيـادـاتـهـ بـشـكـلـ مـتـتـابـعـ، وـظـهـورـ أـسـمـاءـ جـديـدةـ عـلـىـ السـاحـةـ لـتـسـتـابـ قـيـادـةـ الـدـفـةـ، وـتـقـوـدـ الـتـنـظـيمـ بـعـيـداـ عـنـ مـرـادـ الـقـوـىـ الـتـيـ اـخـتـرـقـتـ الـتـنـظـيمـ وـحدـدـتـ مـسـارـهـ أـلـأـمـ.

وـدـونـ الـخـوضـ فـيـ "ـمـنـ هـمـ"ـ قـادـةـ دـاعـشـ الـجـدـدـ تـحـدـيدـاـ، لـاـ بـدـ أـنـ نـدـرـكـ أـنـ الـقـوـىـ الـوـحـيـدـةـ الـقـادـرـةـ عـلـىـ تـحـدـيدـ عـنـاصـرـ الـإـسـتـخـبـارـاتـ الـإـيـرـانـيـةـ وـالـسـوـرـيـةـ الـعـلـوـيـةـ الـمـتـغـلـلـةـ فـيـ تـنـظـيمـ دـاعـشـ مـاـ قـبـلـ ٢٠١٣ـ، وـمـنـ ثـمـ قـنـصـهـمـ وـالـإـطـاحـةـ بـهـمـ، لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تكونـ إـلـأـقـوىـ مـنـاوـئـةـ ذاتـ عـدـاءـ تـارـيـخـيـ وـرـقـابـةـ اـسـتـخـبـارـاتـيـةـ حـيـثـيـةـ إـيـرانـ وـسـوـرـيـاـ اـمـتـدـتـ عـبـرـ عـقـودـ مـنـ الزـمـانـ.

وـهـذـهـ الصـفـاتـ لـاـ نـجـدـهـ إـلـاـ فـيـ قـوـىـ الـجـيـشـ الـعـرـاقـيـ الـمـنـحـلـ عـلـىـ وـجـهـ الـعـمـومـ وـفـيـ الـإـسـتـخـبـارـاتـ الـعـرـاقـيـةـ الـعـامـةـ أـيـامـ حـكـمـ الـبـعـثـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوصـ، وـيـرـجـعـ أـنـهـمـ مـنـ قـادـ عـمـلـيـةـ اـسـتـعـادـةـ الـسـيـطـرـةـ عـلـىـ مـفـاـصـلـ (ـداـعشـ)ـ وـإـعادـةـ تـوجـيهـهـاـ.

وـالـجـدـيرـ بـالـذـكـرـ أـنـ أـغـلـبـهـمـ لـاـ يـزـالـونـ مـنـضـوـيـنـ تـحـتـ مـسـمـيـاتـ عـدـةـ يـعـمـلـ مـنـ خـلـالـهـاـ، مـنـهـاـ حـزـبـ الـبـعـثـ، وـالـمـجـلـسـ الـعـسـكـرـيـ، وـالـطـرـقـ الـصـوـفـيـةـ الـجـهـارـيـةـ كـالـنـقـشـبـنـدـيـةـ، وـالـقـبـائـلـ الـسـنـيـةـ. كـماـ يـجـبـ أـلـاـ نـسـتـبعـدـ وـقـوـعـ مـاـ يـحـدـثـ مـوـقـعاـ طـيـباـ مـتـوـافـقاـ مـعـ مـرـادـ

ورغبة قوى إقليمية متاخمة مثل تركيا، فتغضن الطرف عن داعش أحياناً، وتمكن لها على حذر في أحياناً أخرى.

لقد تضافرت الأقدار لتجعل من إبقاء داعش -إن صح وصف الإبقاء- على الساحة في الفترة الحالية أمراً مقبولاً على مرضض من قبل قوى إقليمية لا تستطيع خوض صراع مباشر ولا مواجهة عقائدية مفتوحة مع إيران، نظراً لحساسية وضعها الداخلي والدولي.

كما أن هذا يخدم هذه القوى الإقليمية المتعاطفة مع القوى والجماعات الإسلامية المعتدلة، في الدفع بإعادة قبول أميركا وأوروبا الإسلام السياسي السنوي المعتدل على الساحة الإقليمية والدولية، باعتباره البديل الأوحد القادر على وقف تمدد داعش أو التقليل من حظوتها بين القوى الشبابية النافرة عن التقليد، الكافرة بالمبادئ الغربية التي وأدت كل إرادة ديمقراطية وحرية حملها الصندوق الانتخابي للواجهة، لتجد في عنف داعش مخرجاً وانتقاماً من الحالة السياسية العربية والإسلامية الراهنة وكل من تسبب فيها.

ولهذا وجب أن نفرق بين داعش ما قبل ٢٠١٤ وداعش ما بعد ٢٠١٤. فالاليوم، بدأت داعش تتموضع، مستغلة التناقض الإقليمي لتعزز وجودها وتدفع بسرعة محمومة نحو فرض كيانها كأمر واقع ولاعب إقليمي على الساحة.

ولكن ما يراد، وما تكمن الإفادة منه في ظل وجود داعش حالياً، ليس بالضرورة هو ما تريده داعش أو ما تعمل لأجله، والتقاء مصلحة داعش مع مصالح الدول الإقليمية في غضن الطرف عنها لا يعني بالضرورة استمرار اللقاء هذه المصالح.

كما أن داعش ذاتها لا تزال تعاني داخلياً من تعدد المشارب والمكونات الفكرية والرؤى السياسية، مما يحتم وقوع صراع داخلي مستقبلي يiquid زناـدـه استقرارها والتفاتها إلى ترسـيـخـ بنـيـانـهاـ، أو دخـولـهاـ في صـرـاعـ مع قـوىـ إـسـلامـيـةـ ذاتـ مـكونـ ومـشرـبـ فـكـريـ مـخـتـلـفـ لاـ يـقـلـ عـنـهاـ قـوـةـ وـإـصـارـاـ.

وسواء بقيت داعش أو رحلت عن الساحة أو بدلـتـ ثـوـبـهاـ الـحـالـيـ، فـمـمـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـهـاـ خـلـفـتـ لـلـأـمـةـ مـيرـاثـاـ سـيـاسـيـاـ عـبـرـيـاـ وهـائـلـاـ منـ حـيـثـ تـدـرـيـ أوـ لـاـ تـدـرـيـ.

وقد تثير مقولتي هذه امتعاض الكثرين، ولكن التحليل المنطقـيـ يجب أن يأخذ في الحسبـانـ تـمـكـنـ دـاعـشـ منـ تـجـسـيدـ وـتـطـبـيقـ فـكـرـ القـاعـدةـ عـمـلـيـاـ عـلـىـ أـرـضـ الـوـاقـعـ.

حيث استطاعت لأول مرة الإطاحة بوهم الحدود الوطنية الجغرافية التي خطتها معاهدـةـ سـايـكـسـ بيـكـوـ، محـرـةـ نفسـهاـ -وـمـنـ خـلـفـهاـ العـقـلـ الـعـرـبـيـ وـالـسـنـيـ- من رـيـقـتهاـ بـفـرـضـ نـمـوذـجـ يـجـعـلـ مـنـ الـمـمـكـنـ وـالـمـقـبـولـ بـيـنـ مـقـومـاتـ الـجـمـعـ الـعـرـبـيـ السـنـيـ استـعادـةـ حـلـ الـأـمـةـ الـوـاحـدـةـ وـالـدـوـلـةـ الـعـرـبـيـةـ الـمـسـلـمـةـ السـنـيـةـ الـكـبـرـىـ، دونـ النـظـرـ إـلـىـ صـلـاحـ دـاعـشـ منـ فـسـادـهاـ حالـيـاـ، وـعـزـزـ ذلكـ فـشـلـ التـحـالـفـ فيـ إـنـهـاءـ دـاعـشـ بـاعـتـرـافـ قـادـةـ التـحـالـفـ الـغـرـبـيـ أـنـفـسـهـمـ.

إن ميراث داعش عابر الحدود أنهى هيمنة الدولة القطرية، وعزز قيم التحالف العقائدي. وقد أسهـمـتـ إـرـانـ -عبرـ حـربـهاـ العـقـائـدـيـةـ الـمـسـؤـومـةـ فيـ كـلـ مـنـ الشـامـ وـالـعـرـاقـ وـالـيـمـنـ- فيـ تعـزيـزـ قـيمـ التـحـالـفـ الـعـقـائـدـيـ، وهوـ ماـ يـعـنيـ أـنـهـاـ (ـإـرـانـ)ـ منـ حـيـثـ تـدـرـيـ أوـ لـاـ تـدـرـيـ لـفـتـ حـبـلـ المشـنـقةـ حولـ رـقـبـتهاـ، إـذـ كـشـفـتـ عـنـ طـوـيـتهاـ وـمـأـربـهاـ أـمـامـ الـمـارـدـ السـنـيـ الـآـخـذـ فيـ الـاـنـتـبـاهـ.ـ ولكنـ لهذاـ الـأـمـرـ حـدـيـثـ آـخـرـ.

أما مستقبل داعش فمنوط مباشرـةـ بالـتـطـوـرـ الـحـادـثـ عـلـىـ السـاحـتـينـ السـوـرـيـةـ وـالـعـرـاقـيـةـ، وـأـيـ الـعـاصـمـتـيـنـ ستـقـعـ قـبـلـ أـخـتـهاـ فيـ أـيـدـيـ الثـوـارـ السـنـيـةـ منـ دـاعـشـ أوـ مـنـ غـيـرـهـمـ.ـ وـالـمـتـابـعـ الـدـوـلـيـ يـقـدـرـ أنـ دـمـشـقـ هـيـ الـمـرـشـحـةـ لـتـكـونـ أـلـيـ الـعـاصـمـتـيـنـ تـحرـرـاـ

على أيدي الثوار، مما يعني تكافؤ فرص الثوار -ممثلين في فصائلهم الكبرى بالإضافة إلى داعش- لإحكام السيطرة أو الظفر النهائي بالسلطة المطلقة.

ويُرجح أن تسبق ذلك تحالفات سريعة، وظهور فصيلين أو ثلاثة فصائل متضادة، تدخل في تفاصيل أو تخوض في ما بينها معركة وجود للإقصاء أو الإخضاع أو الترويض. وهنا يجب أن ندرك أن مكانة داعش في الشام شابها الكثير من شوائب مخلفات ما قبل "داعش ٢٠١٤"، مما يجعلها أقل قبولاً في الشام منها في العراق.

وهو ذات السبب المرجع لكتلة تحالف القوى الإسلامية الأخرى في حال خوض حرب بقاء ضد داعش، وهي الحرب التي ستسدديها داعش دون غيرها إن أصرت على الإقصاء.

ولابد من التنبيه إلى أن موقف داعش باعتبارها "دولة خلافة" -كما تزعم- يجعل من الصعوبة عليها بمكان أن تتنازل طوعاً عن مفهوم الخلافة والسيطرة الجامدة لصالح تحالف إقليمي محلي.

أي أن صراعاً عسكرياً بينها وبين باقي الفصائل المتحالفه أمر مرجح، ما لم تتدخل المفاصل التي تدير دفة داعش (من رجال الاستخبارات العراقية وضباط الجيش العراقي السابقين) بالتعاون مع دول إقليمية مؤثرة، لإعادة تحويل مسار داعش أو التخلّي عنها عسكرياً، علمًا بأنهم المكون الرئيسي الفاعل لها.

ورغم الرفض والتجييش الدولي العارم ضد التنظيمات الإسلامية المسلحة -بما فيها داعش- باعتبارها أيقونة التخلف والبربرية والتوحش في النظر الغربي، فإن الحقيقة الواقع يؤكدان أن من يسيطر على العاصمة سيفرض تعاملًا واعترافًا دولياً بالواقع الجديد باعتباره شرًا لا بد منه، وسيتحول السفاح المزعوم إلى مجرم، ثم إلى دكتاتور، بحسب حاجة الغرب إليه وأضطراره للتعامل معه، وقدرة الغرب على التمحور والتوصّل فائقة وجلية، كما أسلفنا.

والجماعات الإسلامية لن تنبغي لمواجهة الغرب وستتركه ما تركها، ولكن هذه الجماعات -بوصفها الحالي أو بتحولها إلى شكل الدولة- لن تغفل عن القوى الإقليمية والمحليّة التي تحالفت مع الغرب ضدها وتسببت في إراقة الدماء وتأخير التمكين.

وب مجرد التفات الغرب عنها أو القبول بها كأمر واقع، سيمهد لها الطريق لتصفيّة الحسابات القديمة أو تحقيق الطموحات العقائدية. وعندها سيتحول الدكتاتور إلى إمبراطور تقدّمه إليه رسائل الدول الكبرى برسائل السلام والتعايش، ويبداً نجم الدولة السنّية الإقليمية الكبرى (دولة صلاح الدين بمفهومها العقدي والجغرافي وبكل أبعادها) في الصعود، وفرض ذاتها وطموحاتها على الساحة العالمية.

الجزيرة

المصادر: